

المبحث العشرون: الرفق واللين

أولاً: تعريف الرفق واللين:

الرفق لغة: اللطف ولين الجانب^(١)، وهو ضد العنف^(٢)، واللين: ضد الخشونة^(٣)، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٤).

ومعنى «لِنْتَ لَهُمْ»: سهَّلت لهم أخلاقك، وكثرة احتمالك، ولم تسرع إليهم بالغضب فيما كان منهم^(٥).

فظهر من هذه التعريفات اللغوية أن الرفق واللين يتضمن: لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل والأيسر وحسن الخلق، وكثرة الاحتمال، وعدم الإسراع بالغضب والتعنيف^(٦).

ويطلق الرفق واللين على المداراة إذا كان في ذلك دفع برفق، يُقال: «دَارَاهُ» أي لايته واتقاه^(٧)، ودفعه^(٨)، ولاطفه ولاينه اتقاءً لشربه^(٩)، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ كان يصلي فجاءت بهمة

(١) القاموس المحيط، ص ١٤٥، والمعجم الوسيط، ٣٦٢/١، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٢/٢٤٦.

(٢) مختار الصحاح، ص ١٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٥) انظر: تفسير البغوي، ١/٤٤٩.

(٦) انظر: فتح الباري، ١٠/٤٤٩.

(٧) مختار الصحاح، ص ٨٥، مادة ((دَرَأَ)).

(٨) القاموس المحيط، ص ٥٠.

(٩) المعجم الوسيط، ١/٢٧٦.

تمرّ بين يديه فما زال يُدارئُها» أي يدافعها^(١)، وقد بوّب البخاري - رحمه الله - باباً في صحيحه فقال: (باب المداراة مع الناس) ثم أورد حديث عائشة أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة» - أو بئس أخو العشيرة»، فلما دخل «الآن له الكلام». قالت عائشة: فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألتت له في القول. فقال: «أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه - أو ودعه - الناس اتّقاء فُحشه»^(٢)، ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنا لنكشِرُ^(٣) في وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنهم»^(٤).

فظهر أن المداراة هي: الدفع برفق ولين.

والمداراة ليست من المداهنة: قال ابن بطال - رحمه الله -: المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة. قال: وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق: أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه

(١) النهاية في غريب الحديث، ١١٠/٢.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، برقم ٦٠٥٤.

(٣) هو في الغالب الضحك مع ظهور الأسنان، الفتح، ٥٢٨/١٠.

(٤) البخاري، بصيغة التمریض، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس، قبل الحديث رقم

٦١٣١، وقال ابن حجر ٥٢٨/١٠: «منقطع».

بلطف القول والفعل لاسيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك^(١).

وقد قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٢)، ومعنى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يقول: دارياه وارفقا به^(٣)، وقد استدل بهذه الآية المأمون عندما عتفه واعظ وشدد عليه القول، فقال: يا رجل ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٤)، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٥).

ولهذا قال القائل:

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدّها تُعطي النَّضاح وطبعها الإحراق

فظهر مما تقدم:

١- أن الرفق واللين: لين الجانب بالقول، والفعل، والأخذ بالأسهل والأيسر، وحسن الخلق، وكثرة الاحتمال، وعدم الإسراع بالغضب والتعنيف والشدة والخشونة.

(١) فتح الباري، ١٠/٥٢٨.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٣) تفسير البغوي، ٣/٢١٩.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي، ٢/٣٣٤. وانظر: الرفق واللين للدكتور فضل إلهي،

ص ١٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٢- أن المداراة تطلق على الرفق واللين إذا كان فيها مدافعة، كتعليم الجاهل، ونهي الفاسق عن فسقه. والمداراة من أخلاق المؤمنين.

٣- أن المداهنة مذمومة محرمة، وهي: معاشرة الفاسق ومخاللته مع الرضى بما هو عليه من المعاصي وعدم الإنكار عليه، والله الموفق.

ثانياً: أهمية الرفق واللين:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أعطي حظّه من الرفق فقد أعطي حظّه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»^(١).

فقد عظم النبي ﷺ شأن الرفق في الأمور كلها، وبين ذلك بفعله وقوله بياناً شافياً كافياً؛ لكي تعمل أمتّه بالرفق في أمورها كلها، وخاصة الدعاة إلى الله ﷻ؛ فإنهم أولى الناس بالرفق في دعوتهم، وفي جميع تصرّفاتهم، وأحوالهم. وهذا الحديث السابق وغيره من الأحاديث التي ستأتي تُبين فضل الرفق، والحث على التخلق به، وبغيره من الأخلاق الحسنة، وذم العنف وذم من تخلّق به.

فالرفق سبب لكل خير؛ لأنه يحصل به من الأغراض ويسهل من المطالب، ومن الثواب ما لا يحصل بغيره، وما لا يأتي من ضده^(٢).

(١) أخرجه أحمد، ١٥٩/٦، وإسناده صحيح كما في الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم ٥١٩.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم، ١٤٥/١٦، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٤٤٩/١٠، وتحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذي، ١٥٤/٦.

وقد حذر النبي ﷺ من العنف، وعن التشديد على أمته ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به»^(١)، وكان ﷺ إذا أرسل أحداً من أصحابه في بعض أموره أمرهم بالتيسير ونهاهم عن التنفير.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أموره قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله ﷻ بأهل بيتٍ خيراً أدخل عليهم الرفق»^(٣).

وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ رضي الله عنهما حينما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم ١٨٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم ١٧٣٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، ٧١/٦، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢١٩/٣، برقم ١٢١٩: «حديث صحيح من رواية عائشة رضي الله عنها».

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم ٤٣٤١، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم ١٧٣٣، واللفظ له.

(٥) البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، برقم

في هذه الأحاديث الأمر بالتيشير والنهي عن التنفير، وقد جمع النبي ﷺ في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأن الإنسان قد يفعل التيسير في وقتٍ والتعسير في وقت، ويبشر في وقت وينفر في وقت آخر، فلو اقتصر على يسّروا لصدق ذلك على من يسّر مرة أو مرّات، وعسّر في معظم الحالات، فإذا قال: ولا تعسّروا انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب، وكذا يقال في يسّرا ولا تعسّرا، وبشرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ولا تختلفا؛ لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت وقد يتطاوعان في شيء ويختلفان في شيء، والنبي ﷺ قد حثّ في هذه الأحاديث وفي غيرها على التبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، ونهى عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير، وهذا فيه تأليف لمن قرب إسلامه وترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ، ومن تاب من المعاصي كلهم ينبغي أن يتدرج معهم ويُتَلَطَّفَ بهم في أنواع الطاعات قليلاً قليلاً، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدرّج فمتى يُيسّر على الداخل في الطاعة، أو المريد للدخول فيها سهلت عليه وكانت عاقبته غالباً بالازدياد منها، ومتى عُسّرت عليه أوشك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم ولا يستحليها^(١)، وهكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدرّج؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتخوّل أصحابه بالموعظة في الأيام كراهة السّامة عليهم^(٢).

= ٦٩، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الأمر بالتيشير وترك التنفير، برقم ١٧٣٤.

(١) انظر: شرح النووي على مسلم، ٤١/١٢، وفتح الباري، ١/١٦٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ١/١٦٢، ١٦٣.

فصلوات الله وسلامه عليه فقد دلّ أمته على كل خير، وحذّره من كل شرّ، ودعا على من شقّ على أمته، ودعا لمن رفق بهم كما تقدم في حديث عائشة، وهذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وأعظم الحث على الرفق بهم^(١).

ثالثاً: أمثلة الرفق واللين:

المثال الأول: مع شاب استأذن في الزنا:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه! فقال له: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: «أتحبه لأمك» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(٢).

وهذا الموقف العظيم مما يؤكد على الدعاة إلى الله ﷻ أن يعتنوا

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ٢١٣/١٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ٢٥٦/٥، ٢٥٧، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وعزاه إلى الطبراني، ١٢٩/١، وقال: ((رجال رجال الصحيح))، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ٣٧٠.

بالرفق والإحسان إلى الناس، ولا سيما من يُرغَبُ في استئلافهم ليدخلوا في الإسلام، أو ليزيد إيمانهم ويثبتوا على إسلامهم. وكما يبين لنا الرسول ﷺ الرفق بفعله بينه لنا بقوله وأمرنا بالرفق في الأمر كله.

المثال الثاني: مع اليهود:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السأم عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السأم واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة إن الله يُحب الرفق في الأمر كله»، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت وعليكم»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يُعطي على العُنف، وما لا يُعطي على ما سواه»^(٢). وقال النبي ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»^(٣).

وبين رسول الله ﷺ أن من حُرِمَ الرفق فقد حرم الخير، قال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»^(٤).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من الخير، ومن حُرِمَ حظه من الرفق فقد

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، برقم ٦٠٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، عن عائشة رضي الله عنها، برقم ٢٥٩٣.

(٣) المرجع السابق، في الكتاب والباب المشار إليهما سابقاً، برقم ٢٥٩٤، عن عائشة رضي الله عنها أيضاً.

(٤) المرجع السابق، في الكتاب والباب المشار إليهما سابقاً عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، برقم ٢٥٩٢.

حرم حظه من الخير»^(١)، وعنه عليه السلام يبلغ به قال: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير، وليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن»^(٢).

المثال الثالث: مع من بال في المسجد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ^(٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزموه»^(٤)، دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشَنَّهُ^(٥) عليه^(٦).
وقد ثبت في البخاري وغيره أن هذا الرجل هو الذي قال: «اللهم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق، برقم ٢٠١٣، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ١٩٥/٢.
(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٤٥١/٦، وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة، برقم ٨٧٦، وذكر له شواهد كثيرة.

(٣) مه: كلمة زجر، وهو اسم مبني على السكون، معناه: اسكت. وقيل: أصلها: ما هذا؟ انظر: شرح النووي، ١٩٣/٣.

(٤) لا تزموه: أي لا تقطعوا عليه بوله. والإزام: القطع. انظر: المرجع السابق، ١٩٠/٣.

(٥) شنه: أي صبه عليه. انظر: المرجع السابق، ١٩٣/٣.

(٦) أخرجه مسلم بلفظه في كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها، برقم ٢٨٦، والبخاري، بمعناه مختصراً في كتاب الوضوء، باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد، برقم ٢١٩، وروايات بول الأعرابي في البخاري في عدة مواضع منها: برقم ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، وقبل الحديث رقم ٢٢٢.

ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً»، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حَجَّرت واسعاً» يريد رحمة الله^(١).

وتُفسَّر هذه الرواية الروايات الأخرى عند غير البخاري، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخل رجل أعرابي المسجد فصلى ركعتين، ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً! فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: «لقد تحَجَّرت واسعاً»، ثم لم يلبث أن بال في المسجد، فأسرع الناس إليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنما بُعثتم مُيسِّرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين، أهريقوا عليه دلواً من ماء، أو سجلاً من ماء»^(٢).

قال: يقول الأعرابي بعد أن فقه: «فقام النبي ﷺ إليَّ بأبي وأمي فلم يسب، ولم يؤتّب، ولم يضرب»^(٣).

النبي ﷺ أحكم خلق الله، فمواقفه وتصرفاته كلها مواقف حكمة مشرفة، ومن وقف على أخلاقه ورفقه وعفوه وحلمه، ازداد يقينه وإيمانه بذلك. وهذا الأعرابي قد عمل أعمالاً تثير الغضب، وتسبب عقوبته وتأديبه من الحاضرين؛ ولذلك قام الصحابة إليه، واستنكروا أمره، وزجروه، فنهاهم النبي ﷺ أن يقطعوا عليه بوله.

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم ٦٠١٠.

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه في كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، برقم ١٤٧، وأخرجه أحمد في المسند بترتيب أحمد شاكر واللفظ لأحمد، ٢٤٤/١٢، برقم ٧٢٥٤، وأخرجه أحمد أيضاً مطولاً، ١٣٤/٢٠، برقم ١٠٥٤٠، وأبو داود، برقم ٣٨٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند بترتيب أحمد شاكر وهو تكملة للحديث السابق من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، ١٣٤/٢٠، برقم ١٠٥٤٠، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل، برقم ٥٢٩.

وهذا في غاية الرفق والحلم والرحمة، ويجمع ذلك كله الحكمة، فقد أنكر النبي ﷺ بالحكمة على هذا الأعرابي عمله، فقال له حينما قال: «اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً»: «لقد حَجَرْتَ واسعاً»، يريد ﷺ رحمة الله، فإن رحمة الله قد وسعت كل شيء، قال ﷺ: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»^(١)، فقد بخل هذا الأعرابي برحمة الله على خلقه.

وقد أثنى الله ﷻ من فعل خلاف ذلك حيث قال: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ»^(٢). وهذا الأعرابي قد دعا بخلاف ذلك، فأنكر عليه النبي ﷺ بالحكمة^(٣).

وحينما بال في المسجد أمر النبي ﷺ بتركه؛ لأنه قد شرع في المفسدة، فلو منع ذلك لزادت المفسدة، وقد حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منعه ﷺ بعد ذلك لدار بين أمرين:

١- إما أن يقطع عليه بوله فيتضرر الأعرابي بحبس البول بعد خروجه.

٢- وإما أن يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه، أو ثوبه، أو مواضع أخرى من المسجد.

فأمر النبي ﷺ بالكف عنه للمصلحة الراجحة، وهي دفع أعظم المفسدتين أو الضررين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٣) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٤٣٩/١٠.

المصلحتين بترك أسيرهما^(١).

وهذا من أعظم الحكم العالية، فقد راعى النبي ﷺ هذه المصالح، وما يقابلها من المفاسد، ورسم ﷺ لأُمَّته والدعاة من بعده كيفية الرفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف، ولا سبٍّ ولا إيذاء ولا تشديد، إذا لم يكن ذلك منه عناداً ولا استخفافاً، وقد كان لهذا الاستئلاف والرحمة والرفق الأثر الكبير في حياة هذا الأعرابي وغيره، فقد قال بعد أن فقه - كما تقدّم - وفي رواية الإمام أحمد: فقام النبي ﷺ إليّ بأبي وأمي، فلم يسبّ، ولم يؤتّب، ولم يضرب^(٢). فقد أثر هذا الخلق العظيم في حياة الرجل^(٣).

المثال الرابع: مع معاوية بن الحكم:

عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمتونني، لكنّي سكّْتُ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني^(٤) ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

(١) انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٣٢٥/١، وشرح النووي على مسلم، ١٩١/٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه، برقم ٥٢٩، وأحمد، تقدم تخريجه.

(٣) انظر: فتح الباري، ٣٢٥/١، وشرح النووي، ١٩١/٣، وعون المعبود شرح سنن أبي

داود، ٣٩/٢، وتحفة الأحوذى، شرح سنن الترمذى، ٤٥٧/١.

(٤) ما كهرني: أي ما قهرني ولا نهمني. انظر: شرح النووي، ٢٠/٥.

قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنا منا رجالاً يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم».

قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدّونهم»^(١)، (قال ابن الصلاح: فلا يصدّونكم)، قال: قلت: ومنا رجال يخطون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك»^(٢).

قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية^(٣)، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها، قال: «اتّني بها»، فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»^(٤).

وهذا الموقف من أعظم الحكم البارزة السامية التي أوتيها النبي ﷺ، وقد ظهر أثر ذلك في حياة ونفس معاوية رضي الله عنه؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ولهذا قال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه.

- (١) قال العلماء: معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة، ولا عتب عليكم في ذلك، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم. انظر: المرجع السابق، ٢٢/٥.
- (٢) اختلف العلماء في معناه، والصحيح أن معناه: من وافق خطه فهو مباح له؛ ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يُباح، والمقصود أنه حرام؛ لأنه لا يُباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وقيل: إنه نُسخ في شرعنا. فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن فهو محرم. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٢٣/٥.
- (٣) الجوانية: موضع في شمال المدينة بقرب جبل أحد. انظر: المرجع السابق، ٢٣/٥.
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم ٥٣٧، وانظر شرحه في شرح مسلم للنووي، ٢٠/٥.

المثال الخامس: مع من كانت يده تطيش:

عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، فما زالت تلك طعمتي بعد^(١).

المثال السادس: مع من أصاب من امرأته قبل الكفارة:

عن سلمة بن صخر الأنصاري رضي الله عنه قال في حديثه: «... خرجت فأتيت النبي ﷺ فأخبرته خبري فقال لي: «أنت بذاك»؟ فقلت: أنا بذاك، فقال: «أنت بذاك»؟ فقلت: أنا بذاك، فقال: «أنت بذاك»؟ فقلت: نعم ها أنذا فامض في حكمك فإني صابر له، قال: «أعتق رقبة»، قال: فضربت صفحة رقبتني بيدي وقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فصم شهرين» قال: قلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: «فتصدق» قال: فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»، قال فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة وقد أمر لي بصدقتكم فادفعوها لي، قال: فدفعوها لي^(٢).

(١) مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام، برقم ٢٠٢٢، والبخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، برقم ٥٣٧٦.

(٢) أحمد، برقم ١٦٤٦٨، وأبو داود، كتاب الطلاق، باب في الظهار، برقم ٢٢١٥،

المثال السابع: مع من بكت عند القبر:

عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتقِ الله واصبري» قالت: إليك عني فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقليل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١)، وهذا فيه الدلالة على رفق النبي ﷺ بالجاهل، وترك المؤاخذه.

المثال الثامن: من رفق صلة بن أشيم:

ومن المواقف التطبيقية ما فعله صلة بن أشيم - رحمه الله - حين مر رجل قد أسبل ثيابه يسحبها ويجرّها على الأرض، فأخذ الناس يسبّونه ويُغلظون له في القول، فسأه ذلك، وأراد أن يريهم درساً عملياً للرفق واللين في الإنكار فقال لهم: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي إنّ لي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمي عيني - أي أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك - فرفع إزاره. فقال: صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وأذيتموه لستمكم^(٢).



= والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المجادلة، برقم ٣٢٩٩، وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار، برقم ٢٠٢٦، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ٣٥٢/١، وإرواء الغليل، ١٧٩/٧.

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب قول الرجل للمرأة عند القبر: اصبري، برقم ١٢٨٣.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص ١٣٧.